عندما هجرنا تدبر القرآن مدخل

كتبه غريب الديار بتاريخ الجمعة ٦ شعبان ١٤٤٢

إن تدبر القرآن هو مفتاح الاستنارة بنور القرآن ، فهو الذي يجعل المسلم يرى بنور القرآن، فيكون على هدى من طريقه، وهذا نص عليه القرآن حرفيا حيث قال:

﴿ أَوَمَن كانَ مَيتًا فَأَحيَيناهُ وَجَعَلنا لَهُ نورًا يَمشي بِهِ فِي النّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيسَ بِخارِجٍ مِنها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلكافِرينَ ما كانوا يَعمَلونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالوحي هو النور الذي يمشي به بين الناس، وذلك أنه يهديه في كل حين إلى التصرف الصحيح المرضي عند ربه سبحانه.

فإذا لم يتدبر المرء القرآن، بقي في الظلمات، لا شيء يقيني، يتخبط منكبا على وجهه، في شك وريبة، فهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل لأنه لا يرى، وقد عبر الله عنه بتعبير عجيب في دقته حيث قال:

﴿ أَفَمَن يَمشي مُكِبًّا عَلى وَجهِهِ أَهدى أَمَّن يَمشي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُستَقيمٍ ﴾[الملك: ٢٢]

وهذا ما حدث بالفعل للأمة يوم هجرت تدبر القرآن، حيث صارت تتخبط في الظلمات تأتيها الضربات من كل جهة، وهي عاجزة عن الخروج من عنق الزجاجة، تدور في حلقة مفرغة من الهزائم والنكبات، ولا بصيص أمل في الأفق، والسبب أننا لم نعد نتدبر القرآن.

فلو تدبرنا القرآن لعلمنا مكمن الداء وكيفية العلاج، وبدأنا بالتغيير الجذري على بينة من ربنا

ولكن هيهات ... هيهات

فالأمة منذ قرون معرضة عن تدبر القرآن، حتى تعودت الظلام، فكل داعية تدبر القرآن ورأى النور، هو بالنسبة لها شاذ، ضال، وخارجي، ومن ثم فإنها تناصبه العداء، وإليك الدليل

من اليوم من العلماء يجرؤ على فهم القرآن والسنة دون الرجوع للتفاسير وشروح الحديث، مع أن الوحي قرآنا وسنة مبين يسير ومفصل ؟!

هذا يعني أن التدبر الذي هو أعمق من الفهم أمر مستحيل، فالناس أصلا لا تستطيع فهم الوحي قرآنا وسنة فكيف ستتدبره؟

إذا أتى الناس اليوم شخص عالم بلسان العرب، وقال أنا أفهم القرآن والسنة بما دلت عليه ألفاظه في لسان العرب، وأجده يسيرا مبينا، ولا أجد حاجة إلى هذه التفاسير والشروح، بل أجد هذه التفاسير والشروح أكثر غموضا من القرآن والسنة .

لا شك أن الناس ستكذبه، وتعتبره قد أتى بمنكر من القول وزوراً، وتعتبره ضالاً مضلاً، يفسر القرآن والسنة على هواه.

وهكذا يستحيل أن تقنع العميان الذين لم يروا النور يوما، بأنه يوجد نور مشرق، وتلك هي حال الأمة.

في هذه السلسلة سوف أحاول إبراز بعض النتائج الكارثية لعدم تدبر القرآن، لعلها تلقى قارئاً لم تتلوث فطرته، فينتفع بها، ويسعى في نشر النور بين الناس.

لكن قبل المضي قدما في هذه السلسلة يجدر بنا الرجوع إلى يوم كانت الأمة تتدبر القرآن، لنرى قبسا من كيفية تعاملهم مع نصوص الوحي، لعلنا نتأسى بهم، فنتدبر القرآن كما تدبروه، وخير جيل تدبر القرآن، هو جيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم.

كما ينبغي معرفة الأسباب التي حولتنا من أمة تهتدي بالقرآن، إلى أمة تقرأ القرآن وتحرص كل الحرص أن لا يجاوز تراقيها، فأقول مستعينا بالله:

مثال على تدبر الصحابة للقرآن

نجد تدبر الصحابة في الأحاديث الصحاح الكثيرة على سبيل المثال لا الحصر ما أخرجه مسلم في صحيحه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤]

قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا،

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟

بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَرَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ "،

قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا:

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. الآية.

فتأمل أخي كيف أنهم شعروا بأن مخاطبون بقول الله في الآية، وكيف أقرهم رسول الله على أن الآية تخاطبهم فعلا، مع أمره إياهم بالتسليم لما ورد فيها.

أخي الكريم كن مرة نمر على هذه الآية نفسها ونواصل القراءة دون أن تثير فينا أي شعور؟

وكأن قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر والعياذ بالله.

نستنتج من هذا المثال أنه إذا أردت أن تتدبر القرآن اشعر بأن القرآن يخاطبك، منزل إليك أنت تحديدا، لأنه فعلا كذلك، سواء شعرت أو لم تشعر، وأعلم أن أول صفات الكفار في كتاب الله، هي عدم تأثرهم بالنذارة التي في القرآن فهم لا يشعرون كما أخبر ربنا في قوله:

﴿ إِنَّ الَّذينَ كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِم أَأَنذَرتَهُم أَم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنونَ۝خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلوبِهِم وَعَلى سَمعِهِم وَعَلى أَبصارِهِم غِشاوَةٌ وَلَهُم عَذابٌ عَظيمٌ ﴾ [البقرة: ٦-٧]

لا أريد الخوض في أسباب تركنا لتدبر القرآن على مر العصور بشكل مفصل، ولكني سأشير إلى السبب الأهم، وسأرد على أسباب يتوهمها البعض.

إن السبب الأول في عدم تدبر القرآن هو عدم الإيمان بالآخرة للأسف الشديد، نعم فحين ينعدم الإيمان بالآخرة، لا يهتم المرء لا لجنة ولا نار، وبالتالي لا يهتم لمن يأخذ عنه دينه، فالدين عنده جزء من التراث والهوية، أكثر من كونه سبب وجود، ووسيلة نجاحه وفلاحه في الدارين.

يضاف إلى هذا أسباب أخرى طرأت مع تقادم العصور، وهو صد الناس عن كتاب اللّٰه بشكل ممنهج يقوم به أرباب السوء الذين عبدهم الناس من دون اللّٰه، حيث صدوا الناس عن تدبر كتاب ربهم بمقالات سوء منها مقالة أحدهم:

"الأخذ بظاهر لكتاب والسنة أصل من أصول الكفر"

وغيرها من المقولات التي تربى عليها الناس، فصار الواحد يقرأ القرآن ويحاول أن لا يفهمه، حتى لا يقع الضلال الذي حذرته منه أربابه، والعياذ بالله من الزيغ والضلال.

يظن البعض أن العجمة التي طرأت على الألسن هي السبب الرئيس في عدم تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا بعيد كل البعد عن الواقع وذلك لسببين رئيسين:

أولا بيان القرآن الكريم ويسره وتفصيله وهو ما لا يمكن أن ينكره مسلم، إذ أن نكرانه تكذيب للقرآن والعياذ بالله.

ثانيا نجد تلاميذنا وأساتذتنا يعكفون على كل النصوص، فلسفية كانت أو شعرية أو نثرية، فيدروسنها ويستخرجون منها ما فيها من زهيد البضاعة مقارنة بالقرآن الكريم، ولو أنهم اهتموا نفس الاهتمام بالقرآن الكريم والسنة النبوية للتغير حال الأمة تغييرا جذريا، وخرجت من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى فهذا الكتاب هذه وظيفته كما أخبر ربنا في قوله:

﴿يا أَهلَ الكِتابِ قَد جاءَكُم رَسولُنا يُبَيِّنُ لَكُم كَثيرًا مِمّا كُنتُم تُخفونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعفو عَن كَثيرٍ قَد جاءَكُم مِنَ اللَّهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ۝يَهدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ بِإِذنِهِ وَيَهديهِم إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين